

سر نبـ - و غ المتنبي

بقلم علي الجارم

المفتش بوزارة المعارف

طلب إلى أن أكتب في إحدى نواحي أبي الطيب المتنبي، وأعلم أن الناس في القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا، وأن شعره نال من عناية الأدباء ومن يحثهم وجدلهم ما لم ينله شعر قبله أو بعده، وأن كتباً ضخاما ألقت في كل ناحية من نواحي الرجل والشاعر، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معاداً، وأن كل نظرة في شعره تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون.

ولكن المتنبي الضخم يعزُّ على من رامه ويطول، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبا، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديداً، وهو البحر الخضم تقف عند ساحله فيهرك ماترى من عظم، ويفتنك ماتشاهد من ألوان، ثم أنت لا تزال ترسل النظرة إثر النظرة، فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد وفن في الحسن بديع، ولأمر ما كان المتنبي يقول في ثقة ويقين:

أَنَّا مُلِّءُ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ
فكيفما كتب الكتّابون في المتنبي، فلا تزال فيه مجالات للقول، ولا يزال يطل عليك من مشارف آياته معنى سرّي، في ثوب من البيان قشيب

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدتَه نظراً

والمتنبي - وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد - يطغى على الزمن قوة، ويزهو على الأيام جدّة، وما تزال نقرؤه سنة خمس وخمسين وثلثمائة بعد الألف، فهتّز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلثين وثلثمائة؛ ولا يزال يهمس في الأذن بالحكمة النادرة، والقولة الحكيمة، وقد مشّت فوق رؤوس الحقب، وخاضت إلينا مفاوز القرون، وكانت لدة الدهر في شيبته، ثم جاءت إلينا من ذلك المكان البعيد الذي نسميه

الماضى، وقد زادها القدم جده. وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وَسَعَهَا قَبْلَ يَدْنِهَا
فَمُفْتَرَقٌ جَارَاتِ دَارُهُمَا الْعُمُرُ
وَلَا تَحْسِبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً

فَمَا أَلَمْ جَدُّ إِلَّا الْأَسِيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
وَتَرَكْ كُكَّ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا، كَأَنَّمَا

تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَغْلُهُ الْعَشْرُ

تقرأ المتنبي، فتحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريرة مطوى أخبارها، وكثيراً ما حدثنا عن خبايا كنا نحس بها، ونسمع في النفس ديبها، ولكننا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها وهي منا على طرف الثمام، ومن أخبر بهمسات النفوس من أبى الطيب؟ ومن أقدر منه على كشف جولات الخواطر؟

بَرَّتْنِي الشَّرَى بَرَى الْمُدَى، فَدَدَنِي

أَخَفْتُ عَلَى الْمَرْءِ كُوبَ مَنْ نَفْسِي جَرْمِي

وَأَبْصَرَ مِنْ زَرْقَاءِ جَوْ؛ لِأَنِّي

مَتَى نَظَرْتُ عَيْنَايَ، سَاوَاهُمَا عَلِي

ألف سنة تمر، تطوى فيها أمم، وتشر أمم، ويتنقل فيها العقل الانساني في أطوار شتى يحو بعضها بعضاً، وتبدل العادات غير العادات والأفكار، والمتنبي لا يزال يقرأ ويقرأ، ويجد فيه كل عمر طلبته من غذاء روحى تطمئن به النفس وتترتاح اليه الضمائر.

مضى سيف الدولة ومضت آثار، وذهب كافور وانطوت أيامه، وأين على

الحاجب هذا الذي أجاز المتنبي على قصيدة من روائع شعره بدینار واحد ؟ ذهب هؤلاء جميعاً ، وبقي ذكر المتنبي كالصخرة العبوس ، ينفرج أمامها زحام الأيام وتنكص دونها صروف السنين :

وَعِنْدِي لَكَ الشَّرْدُ السَّائِرَا تْ ، لَا يَحْتَضِضْنَ مِنَ الْأَرْضِ دَارَا
قَوَافٍ ، إِذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلِي وَثَبْنَ الْجِبَالِ ، وَخُضْنَ الْبَحَارَا
وَلِي فِيكَ مَالَمْ يَقُلْ قَائِلٌ وَمَالَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا
فالمتنبي عظيم . وأريد في هذا المقال أن أكشف عن قليل من سر هذه العظمة ، وأن أبين بقدر ما في قلبي من مكنة ، شيئاً من ضخامة هذا الشاعر وقوته التي عصفت بشعره عصره ، وحجبتهم بغبارها وما كانوا خاملين ، ولا كانوا مقصرين ، وفيهم السرى الرفاء ، وكشاجم ، والنامي ، والدمشقي ، والسعدي ، وأمثالهم ، من كبار الشعراء ولكنه السهم العائر ، والجد العائر ، أن تعيش في عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخباً ولجاً ، وينشر درر بدائع ذات اليمين وذات الشمال ، فيصغي إليه الدهر ، وتشخص له الأبصار ، وتبقى أنت مغموراً في الزحام ، لاتعدم وكرة من مغامر ، أو ركلة من مزاحم ، في ذلك الخضم الزاخر الرجاف ، والدنيا أم . اذا برزت مواهب أحداً بنائها ، انصرفت اليه بتدليلها ، وطوقته بحنانها نابذة ابناءها الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجد العثور .

وكان المتنبي شاعراً بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر ، فتحدثني شعراء عصره في صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل :

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْمُوْا بِلُحْيَةٍ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْحَقِ
وَلَا تُبَالِي بِشِعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمَمِ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِي شُوَيْعَرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِنِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟
بَأَى لَفْظٍ تَقُولُ الشَّعْرَ زَعْنِفَةً تَجُوزُ عِنْدَكَ ، لَا عُرْبٌ وَلَا عَجَمٌ ؟

وأبرز ما يمتاز به شعر أبي الطيب : القوة ، والروعة ، والابتكار ، والنزوع إلى غاية لم يصل إليها الشعراء قبله ، والقدرة على إرسال المثل ، ودقة الوصف ، والتصرف في المعنى القديم ؛ حتى يعود غضاً جديداً . وقد تجدد لكل شاعر في كل قصيدة قالها بيتاً أو أبياتاً قليلة ، تُعدّ من عيون الشعر وبدائعه ؛ أما المتنبي فلا تجدد له في كل قصيدة إلا بيتاً أو أبياتاً قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد ، والباقي الكثير من القصيدة غرر ودُرر ، فهو إذا مدح يقول فيبزُّ القائلين :

نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَالَوْ حَوَيتَهُ لَهْنَتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدٌ
نعرف أن الناس يمدحون الملوك بالشجاعة والاقدام وكثرة الغزوات .
وأن النصر معقود بلوائهم ؛ ولكن المتنبي يترك كل هذا ليتناول صغار الفنانين ، ويصعد في المدح بهذه المعاني إلى أفق أعلى ، تظهر فيه خصائصه ، وتتميز مواهبه ، فيجعل قتل الأعداء نهياً لأعمارهم ، واغتصاباً لها ، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة ، اتصل بعضها ببعض ، فكونت عمراً طويلاً غير محدود ، ثم يصعد إلى أوج أسْمَى ، فيتخيل أن سيف الدولة ، حاز هذه الأعمار غير المتناهية ، التي انتزعها من أعدائه ، ولا يكتفي بالحكم بأن هذا يصل به إلى الخلود ، بل يدّعي أن الدنيا بمن فيها وما فيها تُهْتَأ بهذا الخلود . ثم ما أجمل تصوير النصر المحقق في قوله بعد هذا البيت :

فَأَنْتَ حُسَامُ الْمُلُوكِ ، وَاللَّهُ ضَارِبُ وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ ، وَاللَّهُ عَاقِدُ
بهذا ومثله ، سبق المتنبي الشعراء في المديح ، وغبّر في وجوههم .
ثم انظر إليه حين يقول في سيف الدولة :

أَتَحَسَبُ بِيضَ الْهِنْدِ أَصْلَكَ أَصْلَهَا وَأَنْكَ مِنْهَا ؟ سَاءَ مَا تَتَوَهَّمُ !
إِذَا نَحْنُ سَمَيْنَاكَ ، خَلْنَا سَيُوفَنَا مِنْ التَّيِّهِ فِي أَعْمَادِهَا تَتَبَسَّمُ
اتَّخَذَ المتنبي من اسم سيف الدولة سبلا شتى للاقتنان في مديحه ، والمائلة بينه وبين السيوف ، فأجاد في كثير من ذلك وحلّتي ، ومثل هذه الفرص تعرض

لكثير من الشعراء، ومجال القول فيها هيئن إذا لم يتجاوز الشاعر اللعب باللفظ على نوع رخيص من التخيل. أما المتنبي فليس من هذا الصنف، ولا من ذلك الطابع، استمع له وهو يتهمك بسيف الهند، حين تظن كذبا وغرورا وتلبسا لشرف الاتصال بسيف الدولة، أنها هي سيف الدولة من أصل واحد، فكلاهما قاطع بتار، وكأني أسمع تهافته في سُخْرِيَّة واستهزاء، حين يقول: (سَاء مَا تَوَهَّمُوا) وهنا موطن قوته وصرامته الشعرية، فأكثر ما تظهر في هذه الجمل القصيرة المفصولة، التي لها وقع السهام، ثم يصعد إلى أفق لا تسافر إليه الظنون فيقول: إن هذه السيف تكتفي من الشرف بأن اسمك وافق اسمها. فإذا سَمَيْتَناك خَلَّناها تَبْتَسِمُ في أغمارها تَبْها ومُجْبَأً.

ثم خذ مثلاً آخر في مدح كافور.

إِذَا طَلَبُوا جَدَّكَ أَعْطَوْا وَحُكِّمُوا

وَإِنْ طَلَبُوا الْفَضْلَ الَّذِي فِيكَ - خِيُّوا

ولو جاز أن يخوُّوا علاك - وهبتهَا ولكن من الأشياء ما ليس يوهبُ

فهو من يستطيع أن يصوِّر الصفح والتجاوز وعظم النفس هذا التصوير؟ إن حسادك وأعدائك إذا سألوك العطاء، أعطيت وأغدقت، وسألهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا ما فيك من كريم الشيم، وعلى الهمم ردوا خائبين، لا ضناً منك ولا بخلاً، فلو كان في استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت (ولكن من الأشياء ما ليس يوهب) وفي هذه الجملة القصيرة أيضاً تظهر قوة الشاعر وشدة أسره.

ننتقل بك إلى الوصف، ولنبدأ بهذه الأبيات:

وَذِي لَجَبٍ لَأَذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ، وَلَا الْوَحْشُ الْمُتَّارُ بِسَالِمٍ

تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ

إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ قُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وَيَخْفَى عَلَيْكَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ فَوْقَهُ مِنْ اللَّمَعِ فِي حَافَاتِهِ وَالْهَمَاهِمِ
 بَرَعِ الْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ الْجِيُوشِ وَالْوَقَائِعِ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ ، فَقَدْ كَانَ يَحْمِلُ بَيْنَ
 جَنْبَيْهِ نَفْسًا نَزَاعَةً إِلَى الْقِتَالِ ، تَدْفَعُهَا الْأَمَالُ الْكُبَارُ ، وَكَانَتْ وَقَائِعُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مَعَ
 الرُّومِ حَافِزَةً لِهَذِهِ النَّفْسِ ، مُؤَجِّجَةً لَتِلْكَ الْجَنْدَةِ ، وَلَوْ حَاولْنَا أَنْ نَشْرَحَ لَهُ خَيْرَ
 مَا قَالَهُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ لِطَالِ الْمَقَالِ ، وَلَكِنَّا نَكْتَفِي بِالْآيَاتِ الَّتِي قَدَّمْنَا ؛ ففِيهَا قُوَّةٌ ،
 وَفِيهَا جَمَالٌ شَعْرِيٌّ ، وَفِيهَا وَصْفٌ دَقِيقٌ ، مَا أَوْرَعَ أَسْلُوبُهُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ ! وَهَذَا
 أَجْلٌ مَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمٍ وَتَنْسِيقٍ إِفَالْجِيُوشِ كَثِيرِ الْعَدَدِ كَثِيرِ اللَّجَبِ ، تَهَادَى قَذَائِفُهُ ،
 أَثَارُ الْوَحُوشِ مِنْ مَكَامِهَا ، وَالطُّيُورِ مِنْ أَوْكَارِهَا ، فَلَاذُو الْجَنَاحِ بَنَاجٍ مِنْ سَهَامِهِ
 الْمَتْرَامِيَّةِ ، وَلَا الْوَحُوشِ بِسَالِمَةٍ مِنْ عَدِيدِهِ الْخِصَمِ ، ثَارَ فِيهِ الْغَبَارُ فَسَدَ الْأَفْقُ ،
 وَعَلَا فِي السَّمَاءِ فَكَسَفَ الشَّمْسُ ، فَهِيَ تَمُرُّ عَلَيْهِ ضَعِيفَةٌ ضَائِلَةُ الضَّوءِ ، فَإِذَا
 أَطْلَتْ فَإِنَّهَا تُظَلُّ مِنْ بَيْنِ رِيَشِ النُّسُورِ الَّتِي حَلَقَتْ فَوْقَهُ ؛ لَوْثُوقَهَا بَنَصْرَهُ ، وَشِدَّةُ
 طَمَعِهَا فِي جَثِّ أَعْدَائِهِ .

وقد شرح هذا المعنى في قصيدة أخرى ، وجَلَّاهُ فقال :

يُطَمِّعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طُولُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ
 وَهَذِهِ الشَّمْسُ إِذَا وَفَّقَتْ إِلَى فُرْجَةٍ بَيْنَ أَجْنَحَةِ النُّسُورِ ، سَقَطَتْ أَضْوَاؤُهَا
 عَلَى الْخُودَاتِ ، مَدُورَةً كَالدَّرَاهِمِ ، وَهَذَا تَشْبِيهُ يَدُلُّ عَلَى دَقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ ، وَأَنَّ
 الْمَشَاهِدَةَ الدَّقِيقَةَ لِمَظَاهِرِ الْأَشْيَاءِ ، كَانَ لَهَا أَثَرٌ بَعِيدٌ فِي تَكْوِينِ الْمُتَنَبِّي ، وَقَدْ أَعَادَ
 هَذَا الْمَعْنَى فِي قَصِيدَةِ شَعْبِ بَوَّانٍ ، فَقَالَ :

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَا نِيرًا تَقَرُّ مِنَ الْبَنَانِ

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْجِيُوشَ كَثُرَتْ فِيهِ هَمَّهُمُ الْإِبْطَالِ ، وَهِيَ الصَّوْتُ يَتَرَدَّدُ فِي
 الصَّدْرِ ، فَإِذَا رَعَدَ الرَّعْدُ لَمْ يُسْمَعْ ، وَازْدَادَ فِيهِ بَرِيقُ السُّيُوفِ ، فَإِذَا لَمَعَ الْبَرْقُ لَمْ
 يُبْصَرْ ، وَإِذَا كَانَتْ الْهَمْمَةُ ، وَهِيَ الصَّوْتُ الْخَافِتُ تُعْطَى عَلَى الرَّعْدِ ، فَأَجْزِرُ

بأن يكون الجيش بالغاً الغاية في العِظَم. (١)
وللمتنبي مَنْحَى في الرثاء عجيب ، فهو لا يلطم الحدود ، ولا يشقّ الجيوب ،
كما يفعل صغار الشعراء ، ولكنه يطلق العنان لفلسفته في الموت والحياة ، فيقول
في رثاء أخت سيف الدولة الصغرى :

خِطْبَةٌ لِلْجِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدُّ م وَلَكِنَّهَا الْمُسَمَّاءُ تُكَلَّلَا
وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْتًا ذَاتُ خِدْرٍ أَرَادَتْ الْمَوْتَ بَعْلًا
وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَخْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ : أَفَ ! فَمَا مَلَّ حَيَاةً ؛ وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلًّا
آلَةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلِيًا عَنِ الْمَرْءِ وَلَى
وقد سلك في رثاء الأخت الكبرى طريقاً جديداً ، هو برثاء القواد والملوك
أشبه منه برثاء النساء :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَ فِي خَبْرٍ فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ أَمَلًا شَرِقتُ بِالْدَّمْعِ ، حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي
كَأَنَّ « فَعْلَةً » لَمْ تَمَلَّ مَوَاكِهَهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَمْنَحْ وَلَمْ تَهَبْ
وَلَمْ تَرُدَّ حَيَاةً بَعْدَ تَوَلِيَةٍ وَلَمْ تُغِثْ دَاعِيًا بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ
والبيت الأول تصوير غريب لحال من فوجى ، يجزى بحزن ، فهو يَتَشَبَّثُ
بالأوهام ، ويلجأ إلى أوهى الأسباب .

(١) تجد وصفاً بديعاً للجوش في القصيدة الدينارية وفي القصائد : « على قدر أهل
العزم تأتى العزائم ، وه الرأى قبل شجاعة الشجعان ، ود طوال قنا تطاعنها قصار ، .
ومن أوصافه البديعة وصفه لبحيرة طبرية في قصيدته : « أحق عاف بدمعك الهمم ،
ووصف الخيل في : « أبعد نأى المليحة البخل ، ووصف الليل في : « ضروب الناس
عشاق ضروبا » . أما وصفه الأسد ، والحى ، وشعب بوان ، فن مشهوراته .

ومن خير مراثيه وأقواها مراثيته في جدته، ولكنه شغل أكثرها،
كعادته، بالحديث عن نفسه :

فَوَاسَفَا أَلَا أَكِبَّ مُقْبِلًا لِأَسِكِّ وَالصَّدِّ الَّذِي مُلْتَاحَزَمَا!
وَالَا أَلَا قِي رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي كَأَنَّ ذِكْرِي الْمِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا
وَلَوْلَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا
لَئِنْ لَدَى يَوْمِ الشَّامِتِينَ يَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدْتُ مِنِّي لَا نَفْهَمَ رَغْمًا
هذه نوازع نبيلة امتزجت بالقوة والروعة والجمال. (٢)

وللتنبى في الهجاء القول الممض والكلام المر ، ولم يكن كثير الهجاء ،
ولكن بيتا واحدا من هجائه كان يقوم مقام القصيدة الطويلة في الإيلام وشدة
الابجاع وإصابة المحز ، فهو يقول لابن كرويس جليس ابن عمار : —

فَلَوْ كُنْتُ امْرَأَةً هَجَيْتُ هَجَوْنَا وَلَكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ
هذا منتهى ما يصل اليه الاحتقار ، فهو ليس برجل يؤبه له حتى يهجي ؛ لأن
قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء ، فهو كالفتى أقل من أن يتسع لمسير .
ويقول لاني الفرج السامري ، أحد كتاب سيف الدولة :

صَغُرْتُ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتُ أَهْجَى كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عَنِ الْهَجَاءِ
وَمَا فَكَّرْتُ قَبْلَكَ فِي مُحَالٍ وَلَا جَرَّبْتُ سَيْفِي فِي هَبَاءِ
أليس ذلك منتهى الصلف القاتل ، والوخز الفاتك ؟

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَائِبِنَ ، ضَيْفُهُمْ عَنِ الْقَرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودِ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي ، وَجُودُهُمْ مِنَ اللِّسَانِ ، فَلَا كَأُتُوا وَلَا الْجُودُ!

(١) اقرأ مراثيه في أم سيف الدولة : و نعد المشرفة والعوالى ،

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نَفْسِهِمْ إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ تَنْهَاهَا عُودٌ
ولو أن إنسانا حاول أن يَهْجُوَ أَلَامَ مخلوق أظَلَّتْهُ السَّمَاءُ ، مَا اسْتَطَاعَ أَنْ
يَقُولَ فِيهِ أَنْكِي مِنْ هَذَا وَأَقْذَعُ .

وكانت للمتنبي فلسفة ، وكانت هذه الفلسفة من أكبر أسباب إجادته ، ثم
من أكبر أسباب شهرته ، ولم تطغ عليه الفلسفة كما طغت على المعري حتى أفسدت
شعره أو كادت .

ويظهر لي أن فلسفة المعري كانت عن اطلاع ، وفلسفة أبي الطيب كانت عن
ابتداع ، وقد كانت هذه الفلسفة تلازمه في جميع فنون شعره ، فهو إذا غر بنفسه
يقول :

وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَآنِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمَسَاعِدُ
وإذا تَغَزَّلَ يقول :

تَقُولِينَ : مَا فِي النَّاسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتَهُ تَجِدِي مِثْلِي
وهذا قياس استثنائي يُعرفه علماء المنطق ويفهمونه .
أو يقول :

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ عَرَصًا نَظَرْتُ ، وَخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ
وإذا ذم يقول :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
وإذا مدح يقول :

أَوَّلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ ، وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

وإذا وصف خيمة سيف الدولة التي سقطت من ريح شديدة يقول :

فَلَا تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمَنْ فَرَّحَ النَّفْسَ مَا يَقْتُلُ !

وإذا رثى يقول :

نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ
أما إذا شكَا الزمان ، ونقد الاجتماع ، أو تعرَّضَ لأخلاق الناس ، فهناك
الانهمار في الحكمة ، وضرب الأمثال ، وفلسفة الحياة .

ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل ، فحكم أبي الطيب كثيرة جداً ، وقد تناوَلها
الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد ، وأكثر قصائده حكماً : « لا افتخار إلا لمن
لا يضام ، و « فؤاد ما تُسَلِّيهِ المدام » و « لهوى النفوس سريرة لا تُعلم »
و « صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ،

وعزَّل المتنبى عزَّل صناعى تَطْلُبُهُ الفنُّ واقتَضَتْهُ الصِّنَاعَةُ ، وكثير منه
مع هذا بالغ حدَّ الجودة ، أليس من المرَّقص قوله :

أَتَرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِ
وقوله :

لَيْسَنَ الْوَشَى لَا مُتَجَمَّلَاتٍ وَلَكِنْ كَى يَصُنُّ بِهِ الْجَمَالَا
وَصَفَّرَنَ الْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلَكِنْ خَفَنَ فِي الشَّعْرِ الضَّلَالَا
وقوله :

وَحَصْرٌ تَثَبَّتُ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا
وقوله :

سَقَاكَ وَحْيَانَا بِكَ اللَّهُ ، إِنَّمَا عَلَى الْعَيْسِ نَوْرٌ وَالْخُدُورُ كَمَا عُمُهُ
وما حاجة الأظمانِ حَوْلَكَ فِي الدُّجَى إِلَى قَمَرٍ ، مَا وَاجِدٌ لَكَ عَادِمُهُ
وقوله :

وَلَوْ زُتُمْ ثُمَّ لَمْ أَبْكِكُمْ بَكَيتُ عَلَى حُبِّ الزَّائِلِ

أما غَزَلُهُ في الأعرابيات في قصيدته : « مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ ؟ » فقد بلغ فيه غاية الإحسان .

وكان المتنبي ثغوراً تَيَّاهَا ، وقد ملأ أكثر قصائده بالتحدث عن نفسه ، حتى عند مديحه للأمرء ، وحسبك أن تعلم أنه يقول عن نفسه في قصيدة أنشدها بين يدي سيف الدولة :

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بَأَنِّي خَيْرُ مَنْ تَسَعَى بِهِ قَدَمُ
الْخَيْلِ وَاللَّيْلِ وَالْيَدَاءِ تَعْرِفَنِي وَالسَّيْفِ وَالرُّمَحِ وَالْقِرطَاسِ وَالْقَلَمِ
ومن أَسَمَى ما قاله في الحماسة والفخر قوله : --

وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب مَنْ أن أجمع الجَدَّ والفَهْمَا
ولكني مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْعَشَمَا
وجاعلُهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ تَحِيَّتِي وَإِلَّا فَلَسْتُ السَّيِّدُ الْبَاطِلُ الْقَرَمَا
إذا قَلَّ عَزَمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بَعْدَهُ فَأَصْعَبُ شَيْءٍ ، مِمَّنْ لَمْ يَجِدْ عَزَمَا
وإني لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نَفْسَهُمْ بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظَمَا
كذا أنا يادنيا ، إذا شئتِ فاذهبي وَيَا نَفْسُ زِيدِي فِي كِرَائِهَا قُدَمَا
فلا عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعْزِيْنِي وَلَا صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلَمَا
وللمتنبي بدائع بلغت الغاية في حُسْنِ تصوير المعاني وتجويد الصناعة ، وصوغ الأساليب يحسن أن نختتم بها هذا المقال كقوله :

كَرِيمٌ لَفَظَتْهُ النَّاسُ لَمَّا بَلَغَتْهُ كَأَنَّهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادٍ قَادِمِ
وقوله :

خَيْرَ أَعْضَائِنَا الرُّعُوسُ ، وَلَكِنْ فَضَّلَتْهَا بِقَصْدِكَ الْأَقْدَامُ

ومن غريب أخيلته في وصف هول الحرب قوله :

واستعار الحديد لونا ، وألقى لونه في ذوائب الأطفال

ومن إحساناته قوله يخاطب الحمى :

أَبْنَتَ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بَنَتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتَ أَنْتِ مِنَ الزَّحَامِ
جَرَحَتْ مُجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَكَانٌ لِلسُّيُوفِ وَلِلسِّهَامِ
وقوله في وصف السيف :

يَبِسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُجَرَّدٌ مِنْ غِمْدِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُنْعَمٌ
رِيَانُ لَوْ قَذَفَ الَّذِي أَسْقَيْتَهُ لَجَرَى مِنَ الْمُهْجَاتِ بَحْرٌ مُزِيدٌ
وقوله :

كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عِيُونٌَ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ
وَقَدْ صُغَتْ الْأَسِنَّةُ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطُرْنَ إِلَّا فِي فُؤَادٍ
وقوله وقد وفد على عليّ الحاحب راجلا : —

وَحُبِّيتُ مِنْ خُوصِ الرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ مِنْ دَارِشٍ ، فَغَدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبًا
وقوله وهو من تخلصاته البديعة :
أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا
وقوله في وصف الخيل :

إِنْ خُلِّيتْ رُبَطَتْ بِآدَابِ الْوَغَى فَدَعَاوُهَا يُغْنِي عَنِ الْأَرْسَانِ
فِي جَعْفَلٍ سَتَرَ الْعِيُونَ غُبَارُهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَ بِالْأَذَانِ

وأوابد أبي الطيب التي بَرَّ بها الشعراء ووصل بها إلى قمة الفن الشعري ، أكثر من أن تجمع في مثل هذا المقال ، وتكفيها هنا هذه الكلمات الموجزة ، في إذاعة شيء من سر عبقريته . على الجارم